دور المرأة السّوريّة في مقاومة الاستعمار الفرنسيّ

أحمد الخضر[1]

مقدّمة

المرأة نصف المجتمع؛ ولم تكن المرأة العربيّة في منعزل عن القضايا العامّة الّتي تحياها الأمّة، بل على العكس كانت تتفاعل معها، وتسهم فيها، وبناء على هذه المكانة للمرأة العربيّة أهّلها ذلك إلى القيام بدور فعّال في مقاومة الاستعمار الفرنسيّ، فلم يقتصر دورها على تربية النُّشّأ، وغرس روح الكفاح، والنّضال فيهم، وحثّهم للذّود في ساحات التّظاهر، أو في ساحات الوغى، بل شاركت هي في كلّ أصناف الكفاح بدأً من تشكيل الجمعيّات، والصّالونات الأدبيّة ذات الأهداف السّياسيّة والاجتماعيّة، مرورًا بالجانب الإغاثيّ، والطّبّي، إلى دعم التّعليم العام البنات، ورعاية، وتعليم بنات الشّهداء بوجه خاصّ، إلى المشاركة في المظاهرات، والمشاركة في التّحريض، وامداد الثّوّار، وتموينهم، وانتهاءً بحمل السّلاح، والقتال في المعارك، وسنأتي على ذكر سيِّدات فاضلات في تاريخ سورية أسهمن في كلّ ما تقدم.

أوّلًا: المرأة السّوريّة قبيل الاستعمار الفرنسي (١٩١٨-١٩٢٠م)

لقد عرفت دمشق بعض الصّالونات الأدبيّة النّسائيّة، وبداياتها كانت على استحياء، فلم تبلغ دمشق ما بلغته لبنان، أو القاهرة[2]، ومع مطلع القرن العشرين بدأت الحركة النّسائيّة النّاشطة تؤدّي دورًا مهمًّا في حياة دمشق السّياسة، وعموم البلاد السّوريّة، فقد

١. رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق سابقًا.

٢. الخربوطلي، محمّد عيد، الصالونات النسائيّة الأدبيّة ودورها في نهضة المجتمع، ص١٧٠.

رحّبت النّسوة السّورية بطلائع قوّات الأمير فيصل بن الحسين سنة ١٩١٨م، وقد خرج جميع سكان دمشق من بيوتهم نساءً، ورجالاً للتّعبير عن ابتهاجهم بالحرّيّة، والاستقلال؛ حتّى النّساء المحجّبات، والقرويّات اللّواتي قدِمن من ضواحي المدينة تجمعن في الشّوارع الرّئيسة، وساحة الشّهداء (ساحة المرجة)، وهتفن للحرّيّة، والوحدة العربيّة، ورغم أن معظمهنّ لم يكنّ من المتعلّمات إلاّ أنّ وعيهن الوطني كان الدّافع للإعراب عن ابتهاجين في ذلك اليوم الوطني[١].

بدأت المرأة تأخذ مكانتها في عهد الملك فيصل في دمشق؛ ففي سنة ١٩١٩م استدعت حكومة فيصل السّيّدة لبيبة هاشم صاحبة مجلّة «فتاة الشّرق» من القاهرة، وكلّفتها بوظيفة مفتّش عامّ وزارة المعارف، وهو منصب رفيع لم يسبق لامرأة عربيّة أن تقلّدت مثله[٢]. ولعلّ أكثر الصّور إشراقا خلال هذه المرحلة، ما قامت به السّيِّدة ماري عجمي؛ عندما قادت حركة حقوق المرأة في دمشق، إذ قدّمت التماسًا إلى المؤتمر الوطنيّ السّوريّ العام لمنح المرأة حقّ التّصويت، والتقت ماري بالملك فيصل لهذا الغرض، وكتبت باستفاضة عن دور المرأة في إعادة بناء مجتمعاتها بعد الحرب[٣]. وعندما وفدت لجنة كنغ -كراين الأمريكيّة في صيف ١٩١٩م إلى دمشق، بتكليف من الرّئيس الأمريكي ويلسون للوقوف على رغبة الشّعب السّوري، واستفتاء أبناء البلاد حول وضعه السّياسيّ العام، قابلتها مجموعة من سيِّدات المجتمع الدّمشقي؛ إذ قدّمت لهم كلّ من عادلة بهيم ونازك العابد مطالب الشّعب في الحرّيّة، واستقلال البلاد، ووحدتها، ورفض الوصاية والانتداب[٤]. ورغم أنّ النّشاط السّياسيّ النّسائيّ الحقيقي إبان هذه المرحلة اقتصر على نساء الطّبقة العليا، اللّواتي كنّ يجتمعن بالملك فيصل وزوجته، وذلك لما توفّر لهنّ من الثّقافة والحضور، ما لم يكن متوفرًا لباقي نساء المجتمع السّوري، إلاّ أنّ

١. علي، رانية حامد، نضال المرأة السورية خلال الانتداب الفرنسي، ص٣٩٨-٣٩٩.

٢. بحبوح، زينب، زينب فواز رائدة من أعلام النهضة العربيّة الحديثة (١٨٤٦-١٩١٤م)، ص١٧١.

٣. الحسواني، يارا سمير، الحياة الاجتماعية للأشياء حكاية بيت من طالع الفضة، ص٥٤.

٤. بهلون، سمر، تاريخ المرأة العربيّة منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى ٢٠٠٨م، ص٢٨٤.

المؤتمر السّوري الأوّل سنة ١٩١٩م لم يتح للمرأة أيّ مشاركة[١]. ويطلق المؤرّخون على هذه المرحلة من تاريخ المرأة العربيّة مسمّى «المرحلة النّهضويّة الأولى».

ثانيًا: السيِّدة نازك العباد[٢] سيِّدة النّضال الوطنيّ في سورية

لم يكن لبدايات النّضال النّسائي الوطنيّ في سورية هدف نسائيّ واضح، وإنّما كان يأخذ طابع مشاركة الرّجال في النّضال السّياسي، ومعارك التّحرّر الوطنيّة[٣]، فمنذ مطلع القرن العشرين بدأت المرأة تدلي بدلوها في الأحداث العامّة؛ وأخذت تفصح عن رأيها في السّياسة، وتشارك في المظاهرات، وتكتب في الصّحافة؛ بعدما دخلت المدارس، وتلقّت التّعليم، وقامت بعض نساء دمشق بتأسيس جمعيّات أدبيّة، أو خيريّة لتعليم الفتيات اليتيمات، ورعايتهنّ، والحفاظ على هوّيّة البلاد العربيّة، وكان على رأس تلك الجمعيّات جمعيّة «نور الفيحاء» سنة ١٩١٩م[٤]، الّتي أسّستها نازك العابد (١٨٨٧-١٩٥٩م) رائدة الوعي النّسائيّ في بلاد الشّام لإحياء العروبة، وقد تفاعلت تلك الجمعيّة بعمق مع ما كان يجري في البلاد السّوريّة من أحداث سياسيّة؛ وفي منشور تاريخيّ، وثائقيّ وزّعته جمعيّة «نور الفيحاء» قبيل معركة ميسلون ١٩٢٠م، على نطاق واسع في مدينة دمشق، يدلّ على مناهضة الجمعيّة، ومنتسباتها للانتداب، ومؤامرة الحلفاء، والأهمّ

١. منى غانم وآخرون، النساء ومجلس الشعب في الجمهورية العربيّة السورية، ص١٥.

٢. تُعد نازك العابد من أبرز الشّخصيّات النّسائيّة السّوريّة من آل العابد، وهي ابنة «مصطفى باشا العابد» متصرّف الكرك، ثمّ والي الموصل في عهد السّلطان عبد الحميد الثّاني، كان مقربًا جدًّا من والي الشّام ناظم باشا. أمّا أمّها فهي السيِّدة «فريدة الجلاد» ابنة أسرة دمشقيّة عريقة. درست نازك بالمدرسة الرّشيديّة للبنات لتعلّم اللّغّات والعلوم التّقليديّة. شاركت في الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة منذ بداية وعيها. دعت لإنشاء أوّل جمعيّة نسائيّة سورية سنة ١٩١٤م. عيّنها الملك فيصل مستشارًا له بعد عودته من القاهرة متأثّرًا بمقالاتها الّتي نشرتها في مجلّة «لسان العرب» ومجلة «العروس»، ودعت فيها إلى منح المرأة حقّ التّصويت في الانتخابات. أسّست جمعيّة للتّمريض باسم «النّجمة الحمراء» في دمشق، وهي فرع للصّليب الأحمر؛ بفضل دعم الملك فيصل وزوجته الملكة حُزيمة بنت ناصر، وقد عيّنت رئيسة لها، كما أسندت إليها مهمّة إدارة ملجأ الأيتام في دمشق. انظر: العابد، مفيد رائف، أوراق عن عائلة العابد بخط المؤرخ الدمشقي عميد الأسرة، ص١٧٤-١٧٥. وانظر: التونتنجي، محمّد، معجم أعلام النساء، ص١٧٢-١٧٣.

٣. الحياة الاجتماعية للأشياء، م.س، ص٥٠-٥١.

٤. الصالونات النسائيّة الأدبيّة، م.س، ص١٧٠.

أنّه ينمّ على درجة الوعي، والتّنظيم الّتي وصلت لها نساء نخبة المجتمع السّوري في دمشق، وهذا نصّ المنشور:

«يا رجال الوطن..

النّساء تدعوكم يا حماة الوطن، وأركان الشّرف إلى التّقدّم إلى الأمام لتذودوا عن بيوت تأمن فيها بناتكم، ويرتكز فيها عزّكم، وشرفكم.

إلى التّقدّم، إلى الأمام، حيث العدوّ يريد طعنكم في مقتلكم، والقضاء على آخر أمل لكم في الحياة. لسنا نساءكم إذا لم تفدوا هذا الوطن المقدّس بدمائكم كما فداه آباؤكم وأجدادكم، فالأمّة كلّها من ورائكم تمدّكم بالمستطاع، وهذا ملككم الّذي بقي السّنين في حومة الوغى لإنقاذكم من أيدي التّرك، يسير إلى الأمام لإنقاذكم من أيدي الفرنسيّين الّذين غدروا به، وبحكومته، وبكم، وبشرف الإنسانيّة جمعاء. وإنّ ما لاقاه ملك سوريا المعظّم من عزم الأمّة السّوريّة الأكيد في دفاعها عن شرفها أيّد ما يعتقده فيكم، فلا تخيّبوا حسن ظنّه، بل أيّدوه وحافظوا على النّظام ليقال عنكم إنّكم أمّة تستحقّ الإعجاب، والاحترام.

وأنتنّ، يا نساء الوطن، تدعوكم جمعيّة الهلال الأحمر النّسائيّة للحضور إلى مدرسة بنات الشّهداء لأمور وطنيّة مهمّة.

التّواقيع: رئيسة جمعيّة الهلال الأحمر النّسائيّة: نازك العابد. الرّئيسة الثّانية: سعاد مردم بك. أمينة الصّندوق: فاطمة مردم بك، الكاتبة: إسعاف النابلسي، والأعضاء: رفيعة العابد، أديبة مردم بك، ليلى ترزي، شفيقة تحسين قدري، سلوى غزي، عقيلة علاء الدين الدروبي، عقيلة عبد اللطيف العسلي، عقيلة أمين الترزي، مزلان مردم بك، عقيلة الشريف جميل، عقيلة يوسف العظمة، منيرة البنا، عقيلة محمد علي التميمي، عقيلة جعفر باشا، وعقيلة فارس الخوري».

كما أصدرت السيِّدة نازك العابد في كانون الثّاني سنة ١٩٢٠م مجلّة «نور الفيحاء» في دمشق، (كُتب على غلافها مجلّة نسائيّة أخلاقيّة أدبيّة)؛ كانت رسالتها النّهوض بالمرأة العربيّة في سورية، وإيقاظها من سباتها، وفتح المجال لها للتّعبير عن رأيها، والمطالبة

بحقوقها السّياسيّة، ما ساعد على نشر الوعي، لكنّها توقّفت بعد صدور العدد التّاسع منها بأمر سلطات الاحتلال الفرنسي. كما كانت نازك العابد تكتب في مجلّة «العروس»[١] الّتي كانت تصدر في حمص لصاحبتها ماري عجمي، إذ اتّفقت معها على التّعاون، والنّضال المشترك، وأن تكون العروس منبراً حرًّا لمواجهة الانتداب، وفضح ممارساته، وكذلك كتبت في مجلّة «الحارس» لصاحبها أمين الغريب الّتي أسّسها سنة ١٩٢٣م، وقد اتّسمت مقاتلاتها بالدّعوة إلى تحرير المرأة، والنّهوض بواقعها التّعليميّ، والثّقافيّ، لتأخذ حقّها كاملاً. كما أنّها أسّست بالتّعاون مع فاطمة مردم، وسلوى الغزي **مدرسة** لبنات الشّهداء في طريق الصّالحيّة باسم «نور الفيحاء»[٢]، بهدف استيعاب بنات شهداء، كما قامت بتأسيس لجنة لمساعدة عوائل الثّوّار الّذين استشهدوا، أو فقدوا في القتال، حاول الفرنسيّون استمالتها بتقديم ١٠٠ جنيه إنكليزي شهريًّا لها بحجّة دعم مدرسة بنات الشّهداء، لكنّها رفضت، واستمرّت المدرسة بدعم وجهاء المجتمع المدني السّوري مثل القاضي راشد مردم بك، ومصطفى باشا العابد (والد نازك العابد)، حتّى أغلِقت سنة ١٩٢١م لأنّ مديرة المدرسة صبحيّة التنيّر رفضت أن تكون عميلة لصالح المخابرات الفرنسيّة على بنات بلدها[٣].

١. مجلة علميّة أدبيّة صحيّة فكاهيّة، هدفها العناية بشؤون المرأة العربيّة.

٢. بدأت المدرسة بدعم من الملك فيصل، الذي قدم معونة قدرها ٧٥ دينار شهريا.

٣. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٧٧. وانظر: زينب فواز رائدة من أعلام، م.س، ص١٨٢.

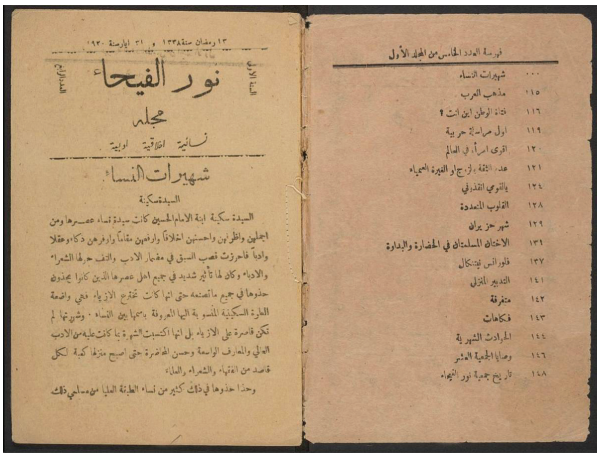

١٣ رمضان سنة ١٣٣٨ و ٣١ ايارسنة ١٩٢٠

السنة الاولى العدد الرابع

نور الفيحاء

مجلة

نسائية اخلاقية ادبية

شهيرات النساء

السيدة سكينة

السيدة سكينة ابنة الامام الحسين كانت سيدة نساء عصرها ومن المجملين والمظلومين والمحسنين اخلاقاً وادباً وافرهن مقاماً وافرهن ذكاء وعقلا واوفاهن فاحرزت قصب السبق في مضمار الادب والتف حولها الشعراء والادباء وكان لها تأثير شديد في جميع اهل عصرها الذين كانوا يحتذون حذوها في جميع ما تصنعه حتى انها كانت تخترع الازياء فهي واضعة الطرز السكينية المنسوبة اليها المعروفة بانها بين النساء . وشريفة لم تكن قاصرة على الآداب بل انها اكتسبت الشرف بما كانت عليه من الادب العالي والمعارف الواسعة وحسن المحاضرة حتى اصبح منزلها كعبة لكل قاصد من الفقهاء والشعراء والعلماء

وحذا حذوها في ذلك كثير من نساء الطبقة العليا من معاصري ذلك

فهرسة العدد الخامس من المجلد الأول

١٠٠	شهيرات النساء
١١٥	مذاهب العرب
١١٦	فتاة الوطن اين انت ؟
١١٩	اول مراسلة حربية
١٢٠	اقوى امرأة في العالم
١٢١	عدد الثقة والربح او الفيزة العمياء
١٢٤	بالقوي الفقدفي
١٢٨	القلوب المتعددة
١٢٩	شهر حزيران
١٣١	الاعتناء بالمسلمات في الحضارة والادارة
١٣٧	فلورانس نايتنكال
١٤١	التدبير المنزلي
١٤٢	متفرقة
١٤٣	فكاهات
١٤٤	الحوادث الشهيرة
١٤٦	وصايا الجمعية العشر
١٤٨	تاريخ جمعية نور الفيحاء

العدد الرّابع من مجلّة نور الفيحاء

وبعد نفي نازك العابد من دمشق قامت بعدّة جولات عالميّة نشرت خلالها أخبار الحَراك الثّوريّ في سوريّة، وشرحت النّهضة النّسائيّة العربيّة، وطالبت في المحافل الدّوليّة بحقّ بلادها في الحرّيّة والاستقلال، فذاع صيتها، ونشرت عنها الصّحف الغربية ملقبةً إيّاها بـــ«جان دارك العرب»، بينما أطلق عليها العرب لقب «سيف دمشق»، ولقب «نجمة ميسلون»، ولقب «خولة» في إشارة إلى خولة بنت الأزور، طاردتها حكومة المستعمر الفرنسيّ وقتها، واستمر نفيها مدّة سنتين، بعدها عادت إلى أرض الوطن، وتعهّدت بأن لا تشارك بأيّ نشاط ضدّ سلطات الانتداب الفرنسيّ، فُرض عليها الإقامة الجبريّة في مزرعتها الخاصّة في الغوطة، وبعد زواجها من محمد جميل بَيهم سنة ١٩٢٩م، انتقلت للعيش في بيروت، ولا سيّما بعد أن واجهتها قيود جديدة تمثّلت في اعتلاء ابن عمها «محمد علي العابد» السّلطة بالتّعاون مع الاستعمار الفرنسي[١].

ثالثًا: الصّحافة الوطنيّة النّسائيّة السّوريّة

لم تكن السّيِّدة نازك العابد وحدها في مشهد النّضال السّياسيّ؛ ففي مجال **الصّحافة**:

١. الصالونات النسائيّة الأدبيّة، م.س، ص١٧٠.

كما عبرّت المرأة العربيّة في سورية عن رفضها للاحتلال الفرنسيّ؛ عندما رفضت الأديبات السّوريّات وقف أقلامهنّ لمصلحة الانتداب الّذي حاول منذ احتلال دمشق أن يشتري أقلام المفكّرين، والأدباء، والشّعراء، والصّحفيّين، والكتّاب لتزييف الحقائق من أجل تجميل صورته لدى الرّأي العام السّوري، وغيره، وتكريس وجده، واكتساب شرعيّته في البلاد[١]، إذ تقول ماري: «**وبعد أيّام قليلة انقضت على استيلاء فرنسا على دمشق، جاءني شرطيّ برقعة يدعوني فيها رئيس الوزراء إلى اجتماع أراد عقده، فخططت عليه كلمة (تبلغت)، وأبيت أن ألبّي الدّعوة، وبعد انعقاد الاجتماع، سألت عن القصد منه فقيل لي إنّ مدير المطبوعات الفرنسيّة خطب في الحضور، وهم الكتّاب، وعلّمهم (كيف يكتبون)، ووزع عليهم ورقًا بلا ثمن، ووعدهم بالمساعدة**».

وكان ممّا كتبته ماري عجمي في مجلّتها «العروس»: «**إنّ الحلفاء قد حرّروا العالم، فيحقّ لهم المجد والفخار، لكنّهم إذا حرّروا الشّعوب أفينكرون عليهم حقّ الاستقلال؟ إنّ بريطانيا محرّرتي، وفرنسا مرشدتي، أمّا سورية فأمّي، أومي حرة فلا تقيدوها**»، لكن فرنسا داست على أوهام ماري عجمي فلم تعد فرنسا مرشدتها نتيجة ممارساتها القمعيّة، والاستبداديّة الّتي عاملت بها أهل البلاد. فردّت ماري بقلمها، وشهّرت في مجلّتها بالطّابع القمعي للاستعمار الفرنسي لسورية، وأشارت إلى التّأثير السّلبي له على مختلف نواحي الحياة؛ في الثّقافة، والتّعليم، والاقتصاد، وهكذا جعلت ماري عجمي من مجلّتها «العروس» منبرًا لمحاربة الانتداب الفرنسيّ[٢]، وكانت ماري تكتب ضدّ الاحتلال الفرنسي لسورية باسم مستعار هو «ليلى»، واختارت هذا الاسم لتوقّع به مقالاتها المناهضة للاستعمار الفرنسيّ خشية على نفسها من بطشهم[٣]. وكان ممّا كتبته في مجلّتها «العروس»: «**من ذا الّذي يقول إنّنا أمّة لا يليق بها أن تمنح الاستقلال، ولا تعرف أن تحكم**

١. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٤.

٢. زينب فواز رائدة من أعلام، م.س، ص١٩٣.

٣. البطل، أحمد خالد، الصالونات الأدبيّة الثقافية في دمشق النشأة، الرواد، صعوبات وتحديات بين (١٩٢٠- ٢٠٠٠م)، ص٧٨.

ذاتها بذاتها؟». وكتبت: «**لم تحمل فرنسا إلينا إلّا المحاكم المختلطة الّتي يئنّ منها القوم، والدّيون المتراكمة، والضّرائب الّتي تتكاثر من غير إصلاح، والشّركات الفرنسيّة الّتي تطرد هذا، وتستبدّ بذلك من دون أن يسمع أحد شكواه، ولو ملأ أنينه عنان السّماء**».

وعندما حاولت سلطات الاحتلال الفرنسيّ شراء ضمير السيِّدة ماري عجمي -أشهر الصّحفيّات السّوريّات حينها- بالمال، وأن تقدّم رشوةً لها، مقابل أن تكون مقالاتها في مجلّة «العروس» لصالح الانتداب الفرنسي، وأن تروّج لهم، وتكتب عنهم: «**إنّهم فتحوا المدارس للفتيان، والفتيات في المدن كما في القرى، وأنّهم شجّعوا الصّناعة الوطنيّة، والمهن المحلّيّة، وأنّهم شجّعوا حرّيّة الصّحافة**»، لم يفلحوا معها، ورفضت أن تتعاون معهم، وكان جوابها أن يحقّقوا هذه الأشياء حقًّا، وأنّها ستكون سعيدة بالكتابة عنها في مجلّتها من دون مكافأة ماليّة[١].

لقد صدرت في دمشق مجلّة نسائيّة باسم «المرأة الجديدة»، غايتها بثّ روح التّربية، وتحسين الحياة العائليّة، وترقية المرأة العربيّة في سورية أدبيًّا، وعلميًّا، واجتماعيًّا. وكانت السّيِّدة عادلة بهيم الجزائري (١٩٠٠-١٩٧٥م) تكتب في جريدة «فتى العرب» لصاحبها أحمد الأرناؤوط الّتي أسّسها سنة ١٩٢٠، وكانت تذيّل كتاباتها باسم مستعار هو «الفتاة العربيّة»، كما صدرت في حزيران سنة ١٩٢٨م مجلّة «دوحة المياس» لماري عبده شقرا (١٩٠١-١٩٨٧م) في حمص، وهي مجلّة علميّة أدبيّة نسائيّة، كتب على غلافها إنّها؛ «نجمة الأمومة والهدى... نواة الفضيلة والثّروة... حديقة الشّعراء والنّابغين... عروس الجمال والفنون... إنّ مجلّة دوحة المياس تقتطف الأزهار الجميلة من حديقة النّفوس، والمعرفة، وتقدّمها إلى القرّاء الكرام محاولة أن تنعشهم بشذاها العطِر لتحيا كلّ روح في موكب العمل»[٢].

وفي ٣٠ تشرين الأوّل ١٩٣٠م صدرت في مدينة حماة مجلّة «المرأة» لصحابتها

١. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٤.

٢. عثمان، هاشم، الصحافة السورية ماضيها وحاضرها (١٨٧٧-١٩٧٠م)، ص٦٧، ص١٠٠.

الحلبيّة السّيِّدة نديمة منقاري الصابونجي؛ وهي مجلّة علميّة نسائيّة شهريّة؛ صدرت ٣٢ صفحة من القطع الصّغير، كان شعارها (المرأة مربّية الرّضيع، ومعلّمة اليافع، ودليل الشّاب، ورفيق الرّجل)، أمها هدفها فكان كباقي المجلّات النّسائيّة الّتي سبقتها؛ وهو العناية بشؤون المرأة العربيّة في سورية لا سيّما المرأة المسلمة[١]، فقد أخرجت هذه المجلّة «لتكون وسطا صالحًا لمباحث السّيِّدات الفاضلات، والسّيِّدات إذا تكلّمن في هذا الصّدد، يتكلّمن عن مسائل درسنها، واختبرنها بأنفسهنّ، وصاحب البيت أدرى بالّذي فيه... ستعنى عناية خاصّة في شؤون المرأة في جميع نواحيها، وليس من شكّ أنّ عنايتنا ستنصرف إلى شؤون المرأة السّوريّة المسلمة غالبًا، لأنّنا نعتقد أنّ المرأة المسلمة في تأخرٍ مزرٍ يضرّ بحياتها العائليّة»[٢]، لم تسلم مجلّة «المرأة» من استبداد الحكم الفرنسي؛ الّذي قضى بإغلاقها بحجّة أنَّ مقالاتها المناهضة لسلطات الاحتلال الفرنسي تثير الفتنة. ثمّ عادت للصّدور بعد الاستقلال في دمشق بأربعين صحفة من القطع المتوسّط.

رابعًا: الجمعيّات الوطنيّة النّسائيّة السّوريّة

أمّا في مجال **الجمعيّات**؛ يعدّ «النّادي النّسائي الأدبيّ» الّذي تأسّس في دمشق – حي القصاع سنة ١٩٢٠م أسبق الجمعيّات الأدبيّة، وقد أسهم في تأسيسه نخبة من سيِّدات المجتمع السّوري من أمثال السّيِّدة ماري عجمي، وقد ترك أثرًا كبيرًا على الحركة الأدبيّة النّسائيّة في سورية؛ طبعًا بفضل جهود، ونشاط هيئته، ورئيستها سارة مشاقة، وكان من أهدافه توثيق الصّلة بين السّيِّدات، ورفع مستوى المرأة، ونشر الثّقافة، وأنشأ مكتبة تتيح للسّيِّدات فرصة المطالعة، لتكون عضوًا فاعلاً في المجتمع العربي في سورية. بالإضافة إلى عقد الاجتماعات، والمحاضرات من قبل أعضائه الإناث، أو من قبل الشّخصيّات الوطنيّة المؤثّرة في المشهد الثّقافي العام في البلاد، وبذلك يكون النّادي قد وفّر للسّيِّدات فرصة التّعبير عن آرائهنّ، وأفكارهنّ، ونتاجهنّ الأدبيّ، كما سمح لهنّ بالاطلاع على أفكار

١. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٧٨.

٢. الصحافة السورية ماضيها وحاضرها، م.س، ص١٠٢.

مشاهير الأدباء، والفكّرين. ولم يقتصر دور النّادي على نشر الثّقافة، والاهتمام بالمرأة بل كان هدفه تنمية الحسّ الوطنيّ، والشّعور بالمسؤوليّة اتّجاه ما يحدق بالوطن من أخطار، كما عملت المنتسبات للنّادي على التّرويج للصّناعة الوطنيّة، واقتناء منتجاتها[١]. أمّا في المجال الإغاثيّ، والصّحّيّ؛ فكانت جمعيّة «نقطة حليب» سنة ١٩٢٢م، الّتي شاركت زهراء اليوسف في تأسيسها في دمشق ١٩٢٢م، وانتخبت لتكون رئيسة الجمعيّة، وكان هدف الجمعيّة تأمين الحليب البقريّ الطّازج للأمّهات السّوريّات ذوات الدّخل المحدود، والفقيرات، استطاعت الجمعيّة توزيع ٨٨٥٠ علبة حليب خلال عامها الأوّل[٢].

لقد انتُخِبت السيِّدة ماري عجمي عضوًا في جمعيّة «الرّابطة الأدبيّة» في لجنة النّقد الأدبيّ، الّتي تأسّست في دمشق في آذار ١٩٢١م، وعندما انحلّ عقد الرّابطة الأدبيّة، بأمر من سلطات الاحتلال الفرنسي، وتوقّفت المجلّة النّاطقة باسمها، لقمع كلّ نشاط وطنيّ ثقافيّ، استأنف أعضاء الرّابطة الاجتماع في منزل ماري عجمي الكائن في باب توما، وكانوا نخبة رجال الأدب، والفكر في دمشق وهم: شفيق جبري، نجيب الرّيّس، وخليل مردم بيك، وفخري البارودي وغيرهم[٣]. لتكون أوّل سيِّدة في عهد الانتداب الفرنسي تؤسّس صالونًا أدبيًّا يستقبل نخبة واسعة من كبار الأدباء، والسّياسيّين في تلك الفترة، وبذلك خرجت عن العرف الاجتماعيّ. وقد غلب على صالونها المناقشات السّياسيّة بشكل عامّ[٤]. وفي سنة ١٩٢٣م رافقت السّيِّدة ماري عجمي وفدًا من أمّهات المعتقلين السّياسيّين السّوريّين في سجون الاحتلال الفرنسيّ في جزيرة إرواد لزيارة زوجة مسؤول فرنسي رفيع المستوى، وطالبت بالحرّيّة للمعتقلين[٥]. وقد استمرّت ماري في مقارعة المستعمر الفرنسيّ حتّى سنة ١٩٢٦م من خلال صفحات مجلّة «العروس» الّتي توقّفت

١. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٠.
٢. الصالونات الأدبيّة الثقافية في دمشق، م.س، ص٨٠.
٣. الصالونات النسائيّة الأدبيّة، م.س، ص١٧٣.
٤. الصالونات الأدبيّة الثقافية في دمشق، م.س، ص٧٨-٧٩.
٥. زينب فواز رائدة من أعلام، م.س، ص١٩٤.

نهائيًّا سنة ١٩٢٦م، بعدها انصرفت إلى التّدريس، وللكتابة في صحف، ومجلات سورية، ولبنان، ومصر[١].

كما أسّست النّساء السّوريات جمعيّات مستقلّة إبّان الثّورة السّوريّة الكبرى (١٩٢٥-١٩٢٧م)؛ فمثلاً انضمّت السّيِّدة «عادلة بهيم الجزائري» (١٩٠٠-١٩٧٥م) أميرة الرّائدات العربيّات، إلى الجماعات السّرّيّة الّتي كانت تناضل لطرد الاستعمار، والظّفر بالاستقلال، وقدّمت الدّعم للثّوّار من خلال تأمين العلاج، والغذاء لهم، ولذويهم. وبعد انتهاء القتال كانت النّساء في سورية يردن أن يكنّ مواطنات فاعلات، حتّى يتسنّى لهنّ المشاركة في عمليّة البناء، والتّحرير، فقد نظّمت السّيِّدة عادلة بَيهم برنامجًا لتشغيل النّساء اللّواتي فقدن أزواجهنّ أثناء الثّورة على الفرنسيّين. وفي سنة ١٩٢٧م وأسّست السيِّدة عادلة بهيم جمعيّة «**يقظة المرأة الشّامية**» لتشجيع المرأة العاملة في الرّيف السّوري، داعيةً من خلالها إلى إحياء الصّناعات اليدويّة التّقليديّة الشّعبيّة، وتطويرها، وقد قدّمت هذه الجمعيّة خدمات مختلفة البنات السّوريّات؛ منها دروس لبنات الفقراء في اللّغة الإنكليزيّة، والخياطة، وزيارة المستشفيات، بالإضافة إلى المحاضرات الشّهريّة[٢].

ولمّا كان هدف الانتداب الفرنسيّ التّأثير على الحياة الاجتماعيّة في سورية تمهيدًا لفرنستها، لذلك فتحت سلطات الانتداب دور السّينما؛ وشجّعوا النّساء على حضورها، بالإضافة إلى المسارح الّتي يشارك فيها النّساء، والرّجال التّمثيل، وأطلقوا على ذلك «الفنون» مُهمين النّاس بأنّها المدنيّة، والتّحضّر ممّا تسبّب في حدوث شرخ في المجتمع المسلم المحافظ. والأخطر من ذلك أنّهم أكثروا من الملاهي، ودور الرّقص، وفتحوا الخمّارات، وأباحوا الخلاعة، وأدخلوا الرّاقصات، والمغنّيات الأجنبيّات باسم الحرّيّة، والمدنيّة، والحضارة، وسعوا إلى فساد أخلاق الشّباب، وسوقهم إلى حياة اللّهو، والتّرف، وإضعاف قوّة الشّعب الدّينيّة، والأدبيّة بدفعهم إلى الملاهي، وإبعادهم من قضيّتهم

١. الصالونات النسائيّة الأدبيّة، م.س، ص١٧٣.

٢. الحياة الاجتماعية للأشياء، م.س، ص٥٥.

الرّئيسة في محاربة المستعمر المستبد، وانتدابه الّذي أدّى إلى انتشار الفساد. كما كان للانتداب تأثير على الزّواج في سورية حيث شجّعوا الزّواج من الأجنبيّات، وهنا يكمن الخطر، فحيثما يكثر الزّوجات من غير المسلمات في بيئات عربيّة إسلاميّة تضعف القيم الأخلاقيّة الأصيلة الموروثة، الأمر الّذي يؤدّي إلى سلب المجتمع العربي المسلم عددًا كبيرًا من الرّجال المؤمنين بقضيّة الحرّيّة، والاستقلال، كما أنّ الأطفال الّذين ستنجبهم سيِّدات فرنسيّات سيرثون حبّ فرنسا، وثقافتها؛ عن طريق أمّهاتهم، أكثر ما سيرثون من رغبة الحرية والاستقلال عن طريق أهل آبائهم، لذلك أولى المبشّرون بالمرأة المسلمة في سورية اهتمامًا بالغًا، باعتبارها مدار الحياة الاجتماعيّة، وقد أدركوا أنّ الوصول بالتّبشير إليها يعني الوصول إلى الأسرة كلّها، فالتّأثير الّذي تحدثه الأمّ في أطفالها حتّى سنّ العاشرة مهم؛ ولهذا السّبب أخذ المبشّرون يأتون بالنّساء المبشّرات ليتّصلن بالنّساء المسلمات في سورية، فهم اعتبروا المرآة المسلمة وسيلة مهمّة لتعجيل النّصرانيّة في البلاد العربيّة[١].

وفي المقابل سعى السّوريّون إلى الحفاظ على ثقافة بلادهم، وتراثهم، وقيمهم الأخلاقيّة، ومن تلك النّشاطات النّسويّة في ذلك المجال؛ أنّ جمعيّة يقظة المرأة الشّاميّة مع جمعيّات نسائيّة سوريّة أخرى، ومع الاتّحاد النّسائيّ اللّبناني، عقدت مؤتمرًا نسويًّا هامًّا سنة ١٩٢٨م، إذ جمع المؤتمر في بيروت ممثّلات من ٤٠ جمعيّة نسائيّة من سورية ولبنان، وقد جذبت أعمال المؤتمر اهتمام رجال السياسة، والإعلام، ورغم أنّ المؤتمر بدأ للوهلة الأولى مؤتمرًا اجتماعيًّا فحسب، إلّا أنّ المطالب السياسيّة الّتي طالبت بها السّيِّدات المؤتمرات بيّنت حقيقة أهدافه، فقد تحدّت السيِّدات المجتمعات الهدف الأوّل لسلطات الاحتلال الفرنسيّ ألا وهو «فرنسة» البلاد، وانتقدت المؤتمرات سياسة الاحتلال في سورية، ولبنان في إهمال الصّحّة، والتّعليم، بتقليل الموازنة المتعلّقة بها[٢].

كما تأسّست في سنة ١٩٢٨م جمعيّة «خرّيجات دور المعلمات» في دمشق، وكانت

١. ليامنة، سايح، الآثار السياسية للانتداب الفرنسي والبريطاني على بلاد الشام (١٩٢٤-١٩٣٩م)، ص٣٤-٣٥.

٢. الحياة الاجتماعية للأشياء، م.س، ص٥٥.

رئيستها السّيِّدة منيرة علي الجابري، وكان الهدف من هذه الجمعيّة الصّدّ عن المدارس الأجنبيّة، ورفع مستوى المرأة السّوريّة، ومكانتها الاجتماعيّة، والثّقافيّة[١]. وفي سنة ١٩٢٨م تأسّست جمعيّة «دوحة الأدب»، بعد أن بادرت بعض السّيِّدات للاجتماع في المجمّع العلميّ العربيّ، وكان هدف الجمعيّة النّهوض بواقع المرأة الثّقافيّ، والارتقاء بمكانتها في المجتمع، والسّعي إلى إدخال العنصر النّسائيّ في الحركة الوطنيّة، وإشراكه في النّضال ضدّ الانتداب الفرنسيّ، والسّعي إلى تعليم، وتنشئة الفتيات العربيّات في سورية تنشئة صحيحة، وتربيتهن تربية عربيّة؛ ليخدمن وطنهنّ، لم يستسغ المستعمر الفرنسي فكرة الجمعيّة فرفض ترخيصها، فما كان من السّيِّدة عادلة بهيم إلّا أن فتحت الجمعيّة من دون ترخيص سنة ١٩٣١م، وهكذا أخذت الجمعيّة الأدبيّة بقيادة السّيِّدة عادلة بَهيم تسهم في بثّ الشّعور القوميّ بين منتسباتها، وبين سيِّدات المجتمع السّوري، وكانت تحرص على صدّ الفتيات عن ارتياد المدارس الأجنبيّة، وقد اتّخذت هذه الجمعيّة من التّعليم، وفتح المدارس العربيّة، وسيلة لتحقيق أهدافها. كما كانت السّيِّدة عادلة بهيم ركيزةً أساسًا في تأسيس «الاتّحاد النّسائيّ السّوري»، الّذي تكوّن باتّحاد ثلاث جمعياتٍ نسائيّة سنة ١٩٣٣م، وكان هدف الاتّحاد ضمان مصالح المرأة في سورية[٢].

أمّا أشهر نشاطات الاتّحاد النّسائيّ السّعي إلى الحفاظ على التّراث العربيّ في سورية؛ حتّى أنّ عادلة بَيهم رئيسة للاتّحاد النّسائيّ اجتمعت في العام التّالي من انتخابها بالموسيقي السّوري عمر يطش، وطلبت منو منه تدريب بعض الطّالبات على الرّقص، والسّماح لهنّ بالحفاظ على اللّون التّقليديّ للفنّ السّوريّ، وفي سنة ١٩٣٦م عندما أضربت البلاد (الإضراب السّتّينيّ) بسبب المعاهدة الموقّعة بين سورية، وفرنسا؛ أدّت المرأة السّوريّة دورًا مهمًّا عندما قامت بجمع التّبرّعات، وتوزيعها على العمّال الّذين خسروا أجورهم خلال فترة الإضراب، ممّا ساعد على صمود المضطربين. وساهم

١. نضال المرأة السورية خلال الانتداب الفرنسي، م.س، ص٤٠٤.

٢. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٠.

الاتّحاد النّسائي في سنة ١٩٣٧م في مكافحة الأمّيّة، وإنعاش القرى في مركز جديدة عرطوز غربي دمشق، وفي سنة ١٩٣٨م لبّت السّيِّدة عادلة بهيم رئيس الاتّحاد النّسائيّ السّوريّ دعوة السّيِّدة هدى الشّعراوي بحضور ثلاثين عضوًا للمشاركة في المؤتمر النّسائيّ الفلسطينيّ الّذي عقد في القاهرة، لدعم نضال الشّعب العربي في فلسطين. وفي سنة ١٩٤٤م نجحت عادلة بهيم في ضمّ جمعيّات مهمّة الى الاتّحاد النّسائي السّوريّ مثل جمعيّة نقطة حليب، والنّادي النّسائي الأدبي، وجمعيّة يقظة المرأة الشّاميّة، وجمعيّة دوحة الأدب، وجمعيّة خرّيجات دور المعلمين، وجمعيّة الإسعاف العام النّسائيّ، والمبرّة النّسائيّة، والجمعيّة الثّقافيّة النّسائيّة، وكان أوسع اندماج واعٍ، وطوعيٍ للحركة النّسائيّة في تاريخ سورية، ونظرًا إلى جهود السّيِّدة عادلة انتخبت رئيسًا للاتّحاد النّسائيّ السّوري وقتها، وفي سنة ١٩٤٥م نجح الاتّحاد في تأمين الغذاء لأفراد الشّرطة، وتجهيز مستشفى إسعاف الجرحى[١].

كما تأسّست في سنة ١٩٤٢م جمعيّة «النّدوة الثّقافيّة» في دمشق، وضمّت نخبة ممتازة من فتيات، وسيِّدات المجتمع السّوري فيهن: ألفت عمر باشا إدلبي، وفلك دياب دسوقي، وبلقيس وريمة كرد علي، ونعمة دياب، ورئيسة النّدوة جيهان موصلي. كان نشاط الجمعيّة يقوم على إقامة المحاضرات القوميّة، والاجتماعيّة، والعلميّة، وجلسات أدبيّة، وأمسيات شعريّة، ولم يقتصر نشاطها على ذلك فحسب، فقد كانت تشارك في الفعاليّات الثّقافيّة في سورية، بالإضافة إلى دورها في إحياء الأشغال اليدويّة القديمة، ورعاية الموهوبات الفقيرات من الطّالبات[٢].

كما تأسّست في سنة ١٩٤٢م جمعيّة «سيِّدات الحنان النّسائيّة» في مدينة حلب. وفي سنة ١٩٤٣م تأسّست أوّل جمعيّة سياسيّة معلنة؛ وهي جمعيّة «نساء العرب القوميّات»، وهدفت هذه الجمعيّة الى المطالبة بحقوق المرأة السّياسيّة، واهتمّت بقضية فلسطين؛

١. نضال المرأة السورية خلال الانتداب الفرنسي، م.س، ص٤٠٤.

٢. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٠.

إذ عقدت مؤتمرات من أجل قضيّة فلسطين، وفي سنة ١٩٤٤م أعيد تسمية «الاتّحاد النّسائيّ» باسم «اتّحاد الجمعيّات النّسائيّة» في دمشق؛ إذ ضمّ عدّة جمعيّات مختلفة في سورية، واتّبع التّقسيم الإداريّ في سورية. وفي سنة ١٩٤٥م تأسّست جمعيّة الإسعاف العامّ النّسائي برئاسة أسماء الخوري، والغاية من تأسيسها كان إسعاف الجرحى، ومعالجة المرضى، تقبل تلك الجمعيّة أيّ تبرّعات ذات طابع أجنبي[١]. وتجدر الإشارة أنّ المرأة في سوريّة -رغم النّشاط السّياسيّ الكبير الّذي كانت تقوم به من خلال الجمعيّات، والصّالونات الأدبيّة- إلاّ أنّها ظلّت مبعدة عن البرلمان طوال فترة الانتداب الفرنسي، فرغم أنّ المحتل حرص على أن يُبقي ظاهريًّا شكلاً من الحياة البرلمانيّة، ومرّت سورية خلال فترة الانتداب بعدد من المجالس، لكن المرأة ظلّت محرومة ليس فقط من التّمثيل في البرلمان، بل لم يتح لها حتّى حقّ ممارسة الانتخاب[٢].

خامسًا: المظاهرات الوطنيّة النّسائيّة السّوريّة

لقد دخلت المرأة العربيّة في السّوريّة مجال النّضال السّياسيّ، ولجأت إلى المظاهرات للتّعبير عن رأيها السّياسيّ، ورفضها للاحتلال، ولتحقيق مطالبها، وعندما وفدت لجنة كنغ-كراين الأمريكيّة في صيف ١٩١٩م إلى دمشق، بتكليف من الرّئيس الأمريكي ويلسون للوقوف على رغبة الشّعب السّوري، قابل المستر كراين طائفة من نساء شهداء السّادس من أيار، الّذين أعدمهم حزب الاتّحاد والترّقّي، ومن مذكّرات الدّكتور عبد الرحمن الشهبندر نقتبس تفاصيل ذلك القاء، يقول الشهبندر: «**خرجنا من حيّ «الميدان» توًّا إلى حيّ «المهاجرين»، حيث خرجت نساء الشّهداء للاجتماع بالمستر كراين في بيت المرحوم السّيِّد شكري العسلي. فاجتمع بهنّ، وطيّب خاطرهنّ، وسمع منهنّ تلك الرّغائب الوطنيّة، والآمال القوميّة الّتي بذل الشّهداء أنفسهم على أعواد المشانق في سبيلها، فكان اجتماعًا مهمًّا تجلّت فيه تلك النّهضة المباركة في نسائنا. وقد تقدّمت**

١. نضال المرأة السورية خلال الانتداب الفرنسي، م.س، ص٤٠٤.

٢. منى غانم وآخرون، النساء ومجلس الشعب، ص١٥.

زوجة المرحوم رشدي بك الشّمعة شهيد القضيّة العربيّة، إلى الزّائر الكريم بوجهٍ وشفتين مرتجفتين من فرط التّأثر وهي تقول: «لم يمت رشدي بك إلّا لأجل سلامة الوطن، وإنّ هذه المحن الّتي تئنّ منها بلادنا توجعه في جثته، فإن لم تترفّقوا بالأحياء، يا سيِّدي، بالله ترفقوا بالأموات، ولا توجعوهم في مضاجعهم». تأثّر المستر كراين من هذه الجمل جدًّا، وزاد في تأثّره السّكوت العميق الّذي أعقب ذلك بحيث كان يقرأ على الوجوه الصّامتة ما تعانيه الأنفس من الآلام. ومن قرأ أخبار الاستفتاء عام ١٩١٩، يوم سمع كراين نفسه ما جاءت به عواطف الأمّة السّوريّة يذكر، ولا شكّ أنّ تلك الجلسة الرّنانة الّتي عقدتها حرم الشّهداء، وكان لعقيلتي الشّرف أن تكون بينهن، فأبدين من الوطنيّة الصّادقة ما يبقى مسجّلاً بتاريخ سورية بمداد الفخر. قالت له إحداهنّ يومئذ: «لا تحرمونا من صوت الحرّيّة، وتلقونا في مهاوي الاستعباد، إنّ حياتنا تكون عبئًا ثقيلاً إذا كان رجالنا أرقّاء، لأنّ زوجة الرّقّ لا يحقّ لها أن تكون سيِّدة في بيتها»[1].

وعندما زار المستر كراين دمشق مرّة ثانية سنة ١٩٢٢م اجتمع بالآنسة نازك العابد في منزل والدها السّيِّد مصطفى باشا العابد[2]، وسألها عن مدرسة بنات الشّهداء الّتي كانت رئيستها، ما فعل الله بها، فقصّت عليه كيف أنّ الشّرطة أغلقت المدرسة في شباط سنة ١٩٢١م؛ بعد أن داهموها السّاعة التّاسعة ليلاً، وطلبوا تسليم المدرسة بما فيها من أثاث، وأدوات، فتوسّلت المديرة صبحية التنير بجميع الوسائل لتأجيل هذا العمل إلى الصّباح فلم يمهلوها، وأخيراً أرسلت إلى حقّي العظم -حاكم دمشق من قبل الفرنسيّين- مع أحدى المعلّمات تقول له: «**إنّ عصابة الأشقياء الموجودة على طريق الصّالحيّة عند عرنوس تسترحم مكارمكم أن تمهلوها إلى الصّباح ريثما تتمكن من جمع سلاحها وتسليمه، فقال: وأي عصابة تعني؟ قالت: تلك العصابة الّتي قطعت السّابلة، وأخلّت بالأمن العامّ؛**

---

١. مذكرات، م.س، ص٣٠-٣١.

٢. شيد المنزل سنة ١٩٠٧م في حي المهاجرين، وبعد وفاة السيِّد مصطفى باشا العابد سنة ١٩٢٩م، أهداه الورثة للسيِّد محمّد علي العابد سنة ١٩٣٢م؛ والذي تقلد منصب رئيس الجمهورية السورية بالتعاون مع الفرنسيّين، فحول البيت قصر جمهوري. هدم القصر فيما بعد، وبني مكانه مقسم هاتف، وساحة عامّة.

عصابة بنات الشّهداء، ومعلّماتهنّ، ومديرتهنّ»، فخجل حقّي بك وأرسل معها أمرًا يقضي بالإمهال إلى الصّباح. ولما انتهى الحديث مع الآنسة نازك، أظهر المستر كراين من الاستياء ما لا يوصف، وقال إنّه أُرسل إلى المدرسة بمعرفة السيِّد فشر بعض الهدايا، فأخبرته بأنّها ضُبطت، وصودرت في قبل الفرنسيين أنفسهم[١].

منزل السيِّد مصطفى باشا العابد في دمشق - حي المهاجرين.

ولما كان موعد مغادرة المستر كراين دمشق في ٦ نيسان ١٩٢٢م، وقد اعتزم الرّحيل عنها اجتمع جمهرة من المثقّفين، والأدباء الشّبّان لوداعه، أمّا فندق قصر دمشق «دامسكوس بالاس»، وسرعان ما تحوّلت تلك الجمهرة إلى مظاهرة شعبيّة عارمة تطالب بالحرّيّة، والاستقلال، وقد عبرت ماري عجمي، وكثير من النّسوة السّوريّات عن رفضهنّ لهذا الاحتلال عندما شاركن في هذه المظاهرة، وخطب عبد الرحمن الشهبندر بالجماهير المحتشدة، وطالب بالاستقلال، وخطبت بعده إحدى السيِّدات موجّهة قولها للمستر كراين، قالت في آخره: «إنَّ الحرّيّة حليب سنرضعه لأطفالنا ما دامت الأرض أرضنا والسّماء سماءنا»، وهكذا تحوّل وداع كراين إلى مظاهرة شعبيّة[٢]. إنّ خروج مظاهرة الرّجال الحاشدة في سوق الحميديّة قرب الظّهر، وخروج مظاهرة أخرى السّيِّدات عند السّاعة الرّابعة بعد الظّهر، وهنّ يهتفن للاستقلال، ويطالبن بإطلاق سراح المعتقلين، بقيادة السيِّدة سارة العظم (زوجة عبد الرّحمن الشهبندر)، والسيِّدة نازك العابد، أخاف السّلطات الفرنسيّة؛ فهي لم تألف هذا المشهد في دمشق منذ سقوطها قبل سنتين. وهناك شهادة للسّيِّد عبد الوهاب العفيفي، اقتبسها الشّهبندر، ودونها في مذكّراته عن ذلك اليوم المفصلي في تاريخ سورية (٦ نيسان ١٩٢٢م)؛ وبدورنا نقتبسها عنه: «وما زلنا بين الهاتفين، والمرنّمين بالأناشيد الوطنيّة، والسّيارة (سيارة كراين) تشقّ مسالك الطّرق، والنّاس سكارى بخمرة الوطنيّة الصّميمة، إلى أن دبّ دبيبها في موضع مدركاتهم الحسّيّة

١. مذكرات، م.س، ص٣١-٣٢.

٢. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٤.

والمعنويّة، فما شعروا إلّا بانبعاث السيِّدات، والأنّات الزّافرات من أفئدة فتقتها مدلهمّات الشّجون، وجوارح أنطقتها مختلفات الشّؤون غير مكترثين بما ينجم عن ذلك الانفجار الّذي يعجز المغتصبون عن سدّه في شعب ناهض ثائر. سرنا والسّيّارة سير الهوينا، وما هاجني وراقني غير منظر سيِّدتين مسلمتين تطايرتا من بين الجموع، واعتلتا السّيارة بالقرب من موضعي فيها، واشتركتا مع النّاس في إلقاء العبارات الحماسيّة، والترّنيمات الشّجيّة، ولم يعقهما عن المطالبة بحرّيّة البلاد بما بعثاه في النّفوس من الشّجاعة، والإقدام، وما أوقداه في القلوب من الغيرة بجذوات الاضطرام سدل الخمار الّذي طوته كطيّ السّجلّ للكتب؛ السيِّدة الّتي لها السّبق في هذا المضمار الشّريف، حرم الأستاذ شهبندر، ولعمري إنّ مثل هذه السّيِّدة الأديبة في ميدان كذا سهم أخيب»[١].

وبعد مغادرة كراين دمشق اعتقلت سلطات الانتداب عدداً من رموز البلد في صباح السّابع من نيسان وكان منهم: عبد الرّحمن الشهبندر، خالد الخطيب، حسن الحكيم، سعيد حيدر، منير شيخ الأرض، عبد الوهاب العفيفي، توفيق الحلبي وآخرون، عندها لم تتوان نسوة دمشق عن الاحتجاج على الظّلم بالتّظاهر؛ ففي العاشر من نيسان ١٩٢٢م كسر أهل دمشق نساء، ورجال بالمظاهرات حضر حظر التّجوّل الّذي فرضه الفرنسيّون على دمشق[٢]. ويقدّم لنا الدّكتور عبد الرّحمن الشهبندر شهادته عن الحادثة إذ قول: «تجمّع في عرنوس (وهو الحي الّذي تقطنه سبعون آنسة، وعقيلة من أشرف سيِّدات البلاد) بعضهنّ في البيوت المجاورة بل في منعطفات الطّرقات خشية مداخلة رجال الشّرطة، ومع ذلك فالقسم الأعظم تمكّن من الاجتماع عند عقيلتي، وفي نحو السّاعة الثّالثة زوالية خرجن في وقت واحد رغم أنف المفوّضين، والشّرطيّين، ورجال التّحرّي الّذين كانوا يراقبون باب داري، وصرن يهتفن للحرّيّة، والاستقلال، ويحيين رجال الوطن بمناديلهنّ البيضاء... سارت السيِّدات من هناك إلى القنصليّة الأمريكيّة حيث احتججن

١. مذكرات، م.س، ص٨٣، ٨٤.

٢. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٤.

على العمل الشّائن الّذي ارتكبه المستعمرون الطّائشون، ومن موجبات الأسف أنّهنّ لم يجتمعن بالقنصل نفسه، فذهبن توًّا إلى القنصليّة الإيطاليّة هتفن للاستقلال، واحتججن أيضًا، ومنها للقنصليّة البريطانيّة وكنّ أثناء الطّريق محاطات برجال الشّرطة من كلّ جانب خشية إضرام نار الثّورة من الرّجال. لم يكن القنصل البريطاني في داره، لذلك بعد أن وقفن على باب القنصل دقائق ملن إلى جهة حيّ المناخليّة، ومنها سرن في طريق باب القلعة، ولكن الحكومة هناك اتّخذت أشدّ الاحتياطات لأنّ هذا الطّريق يؤدّي إلى سوق الحميديّة أعظم شارع في دمشق، فأرسلت الجنود من كلّ حدب، وصوب، وسدّت جميع الطّرقات، والمنافذ، واصطفّت السّيّارات المصفّحة عند المصرف العثمانيّ القديم، والدّبّابات بسوق الحميديّة، ولكن السّيِّدات مع ذلك حاولن بكلّ جهد المرور، فوقفت الضّبّاط الفرنسيّون حائلاً دون ذلك، وهنا جرت ملحمة بين سيِّدة وأحد الضّبّاط، فصاحت في وجهه صيحة أدبّت الرّعب في قلبه، والحماس في أحد المشاهدين، فأرسل هذا مدية من جيبه، وحاول طعنه بها، ولكن الشّرطيّين تتدخلوا في الأمر واعتصم هو برعويته الايرانية، ولا أدري ماذا جرى له بعد ذلك. رجعت السيِّدات بالطريق الذي أتين منه وهن يهتفن للحرية والاستقلال وللسجناء، وما زلن بهذا الحماس، والنّاس يتبعهنّ خطواتهنّ، والشّرطيّون يحيطون بهنّ من كلّ جانب، حتّى ضاقوا بهن ذرعًا، وحاروا في الأمر، وأخيرًا لمّا عرفوا أنهنّ سائرات إلى الصّالحية بطريق سوق ساروجة أوعزوا إلى السّيارات الأميريّة، وغيرها من السّيّارات أن تعترض الطّريق أمام المستشفى العسكري، وتحول دون مرور أحد، فلمّا وصلن إلى هذه النّقطة اضطرهنّ الشّرطيون بالقوّة إلى التّفرق. وهكذا انتهت هذه المظاهرة الفذّة في البلاد العربيّة كما ابتدأت بنشر المناديل البيضاء في الهواء، والهتاف للبلاد، وشبابها النّاهضين. أمّا البلدة فإنّها لما بلغها أخبار السيِّدات، وما قمن به من الأعمال الّتي تزري بأعمال الرّجال؛ دبّ الحماس في جميع طبقاتها، فرأوا أحسن فرصة لإبداء العواطف الوطنيّة الّتي افتدتهم، وللاحترام الّذي يجدونه نحو رجالهم، فأغلقوا

حوانيتهم، ومخازنهم بحيث أصبحت المدينة في لمح البصر من أقصاها إلى أقصاها مضربة»[١].

ومن مذكّرات المناضل حسن الحكيم نقتبس وصفًا للمظاهرة النّسائيّة ذاتها: «كانت دمشق في هيجان عظيم تغلي كالمرجل، وكانت أخبارها تأتينا إلى السّجن على الرّغم من ضرب الفرنسيّين نطاقًا حاجزًا حولنا، ولكن لم يظهر أثرًا ملموسًا لهذا الغليان إلّا يوم الاثنين في العاشر من شهر أغسطس إذ جرى أعظم حدث اجتماعي في تاريخ دمشق، عاصمة العرب، وهذا الحدث هو أنّ سبعين آنسة وعقيلة من أشرف سيِّدات البلاد اجتمعن عصر ذلك اليوم في منزل عقيلة الدّكتور عبد الرّحمن الشهبندر، وخرجن بمظاهرة على الرّغم من أنف الشّرطيّين، ومأموري التّحرّي، ورحن يهتفن للحرّيّة، والاستقلال، ويحيّين رجال الوطن، ويلوّحن بمناديلهن البيضاء. سارت تلك المظاهرة النّسائيّة إلى القنصليّة الأمريكيّة حيث احتججن على العمل الشّائن الّذي ارتكبه المستعمرون، ولكنهنّ لم يجتمعن بالقنصل، فذهبن توًّا إلى القنصليّة الإيطاليّة، وهتفن للاستقلال، واحتججن، ومنها إلى القنصليّة البريطانيّة في حي «المناخليّة» وكنّ أثناء الطّريق محاطات برجال الشّرطة من كلّ جانب خشية إضرام نار الثّورة في الرّجال، وبما أنّ القنصل البريطاني لم يكن في داره؛ سرن في طريق القلعة الّذي يؤدّي إلى سوق الحميديّة، وهنا حالت السّلطة دون مرورهن، وأجبرتهنّ على الرّجوع من الطّريق الّذي أتين منه. وعندما وصلن إلى المستشفى العسكري بأوّل طريق الصّالحيّة قام رجال الشّرطة بتفريقهنّ بالقوّة. وهكذا انتهت هذه المظاهرة الفذّة، كما ابتدأت تنشر المناديل البيضاء في الهواء، وتهتف للاستقلال، والشّباب النّاهض. وما إن وصلت أخبار السّيِّدات وما قمن به حتى دبّ الحماس في جميع الطّبقات الّتي راحت تُظهر عواطفها نحو الموقوفين، واحتجاجها على المستعمرين بإغلاق الحوانيت؛ بحيث أصبحت المدينة مضربة إضرابًا عامًّا بأقلّ

١. مذكرات، م.س، ص٩٩-١٠١.

من لمح البصر»[١]. ويطلق المؤرّخون على هذه المرحلة من تاريخ المرأة العربيّة في سورية «المرحلة النّهضويّة الثّانية»، إذ إنّ نشاط المرأة لم يعد قاصرًا على كتابة المقالات، والمشاركة في الجانب الإغاثي، وإنّما اقتحمت ساحات النّضال الوطنيّ، وتحدّت الاحتلال بضراوة، متسلّحة بالمبادئ ذاتها الّتي نادت بها الثّورة الفرنسيّة.

وحين اندلعت المظاهرات المندّدة بالاستعمار الفرنسي سنة ١٩٢٨م خلال انتخابات «الجمعيّة التّأسيسيّة» لوضع دستور البلاد، خرجت المرأة العربيّة في سورية تلتفّ بالعلم السّوري، وتلهب الحماس، وتشحذ العزائم، والهمم، وقد رفضت المعلّمات العربيّات في المدارس السّوريّة الهتاف للعلم الفرنسيّ، فعاقبت سلطات الاحتلال العديد منهنّ، كما عاقبت الآنسة ثريا حافظ[٢] بالنّقل من مدرسة دار المعلّمات؛ لأنّها استقبلت المندوب الفرنسيّ بطالبات تلحّفن بعلم بلادهن، وأنشدن نشيد «حماة الدّيار.. عليكم سلام» للشّاعر السوري خليل مردم بيك، بدلاً من النّشيد الوطني الفرنسي[٣]. تزوّجت ثريا حافظ من الصّحفي والمناضل منير الرّيس، وقد مارس الفرنسيّون ضدّ هذه السيِّدة حربًا نفسيّةً

١. مذكراتي، صفحات من تاريخ سورية الحديث (١٩٢٠-١٩٥٨م).

٢. ثريا الحافظ: أديبة ومربية اجتماعيّة ولدت في دمشق سنة ١٩١٢م، أعدم حزب الاتحاد والتّرقّي والدها السيِّد «أمين لطفي الحافظ» لأنّه طالب بحرّيّة العرب. حصلت السيِّدة ثريا على شهادة دار المعلمات، تزوّجت من الصّحفي المناضل محمّد منير الريس صاحب جريدة بردى. عملت معلمة للّغة العربيّة في دمشق، ثمّ مديرة لعدد من مدارسها. سافرت إلى الصّين، وعندما عادت الى سورية بدأت مشوارها النّضالي أسوة بوالدها؛ فشاركت في المظاهرات السّوريّة النّسائيّة ضدّ الانتداب الفرنسي، كانت عضوًا في كثير من النّوادي، والجمعيّات الأدبيّة السّوريّة، أسّست ثريا الحافظ بالاشتراك مع السيِّدة زهراء اليوسف زوجة الرّئيس محمّد علي العابد، والسيِّدة رفيف صعب، والدّكتورة طلعت الرّفاعي صالون «حلقة الزّهراء»؛ إذ تقول ثريا الحافظ أنّها رأت فيما يرى النّائم أنّها في قصر الحمراء، وأنّها قد أسندت ظهرها إلى عمود من أعمدة القصر، وهي تقرأ الشّعر، ثمّ صحت من نومها، فقالت في نفسها أنّ الله تعالى يوعز لها أن تقوم بإنشاء جمعيّة حرّة تكون منبرًا للرّأي الحرّ، فكان هذا المكان هو بيت زهراء اليوسف، إلّا أنّ الصّالون توقف نشاطه بعد مغادرة العباد وزوجته اليوسف البلاد للعيش في فرنسا نيس، تمهيدًا لتشدين عهد الحكومة الوطنيّة في دمشق. كما كان لدى ثريا الحافظ صالونها الخاص باسم «صالون سكينة الأدبي»، وكان أطول الصّالونات النّسائيّة الأدبيّة عمرًا، كان منظّمًا على المستوى الوطني، وكان يعقد اجتماعه كلّ خمسة عشر يوما في بيتيها. انظر: الصالونات الأدبيّة الثقافية في دمشق، م.س، ص٨١. انظر: نضال المرأة السورية خلال الانتداب الفرنسي، م.س، ص٤١١.

٣. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٥.

عندما اقتحموا بيتها في منتصف اللّيل بحجّة التّفتيش عن زوجها لاعتقاله، لكنّ شجاعتها كانت تفوق تلك الحرب النّفسيّة، إذ قالت للمداهمين: «**إنّ منير رجل شجاع، ولا يختبئ تحت الأسرّة، لو كان هنا لأحسن استقبالكم**»، ما أدّى إلى استفزاز الدّرك فاعتقلوها بدلاً منه لفترة قصيرة، ثمّ عادوا، وافرجوا عنها. وعندما تعرّض زوجها للاعتقال سنة ١٩٣٩م، قادت زوجته المظاهرات في محاولة منها للضّغط على الحكومة التّابعة للفرنسيّين بهدف الإفراج عن زوجها المعتقل، وعن جميع الوطنيّين السّوريّين في السّجون الفرنسيّة، وقد ساعدها في تنظيم تلك المظاهرات كلّ من السيِّدتين سنية الأيوبي، جيهان الموصلي[١].

أمّا أكبر مظاهرة وطنيّة شهدتها مدينة دمشق كانت في ١٧ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٤م، بعد تعطيل الحياة البرلمانيّة في سورية، على إثر رفض المعاهدة الّتي عرضتها فرنسا على الجانب السّوري، وما ميّز هذه المظاهرة أنّ النسوة اللّواتي انضممن إلى المظاهرة في شارع بغداد كنّ حوالي ١٠٠ سيِّدة محجبة، كنّ يصرخن نادبات؛ كما لو أنهنّ يندبن عزيزاً قد مات، وقد رافقت هذه الثّلّة من السيِّدات المظاهرة من شارع بغداد حتّى سوق ساروجة، والعمارة، وجامع القصاب، اضطرّت سلطات الاحتلال الفرنسي إلى تفريق المظاهرة؛ إلى إلقاء القبض على طائفة كبيرة من هؤلاء النّسوة، نحو نصف خمسين سيِّدة، واحتجزتهنّ في دار الشّرطة، ما وتّر الأجواء أكثر على هذا التّصرّف الّذي يخالف أعراف، وعادات وتقاليد البلد المُنتدب، ورفعت الفعاليّات الشّعبيّة برقيّات الاستنكار، والتّنديد إلى مكتب المفوّض السّامي، الّذي شعر بحنق أكبر على الّذين أذنوا لهؤلاء النّسوة على المشاركة في المظاهرات. قدّمت سلطات الاحتلال الفرنسيّ في اليوم التّالي النّسوة إلى المحاكمة الاستثنائيّة. وقد هاجم مسيو موغان -المدعي العام الفرنسي- السيِّدات الموقوفات، وطلب من المحكمة الحكم عليهنّ بأقصى العقوبات؛ لردع أمثالهنّ عن مقاومة الفرنسيّين. وعلى الرّغم من محاولات المدّعي العام الفرنسي

١. الصالونات الأدبيّة الثقافية في دمشق، م.س، ص٨٢.

استفزاز الشّعب العربي في سورية، بالهجوم عليهن وتوجيه الإهانة لهنّ بقوله: «**إنّ السّوريّين جبناء وأنذال.. يختبئون في دورهم ويرسلون نساءهم للمشاركة في المظاهرات في الشّوارع والإخلال بالأمن**»، إلّا أنّ دعواه تلك ردت عليه؛ لأنّ عموم السّوريّين لم يروا في خروج بناتهم لمواجهة المستعمرين؛ بالمشاركة في المظاهرات؛ العار الّذي ادّعاه المدّعي العام الفرنسي، بل أكّدوا أن مشاركة المرأة للرجل في القتال ليس أمرًا جديدًا على العرب، وأوضح نائب دمشق السيِّد فخري البارودي الّذي طلب من المدّعي العام الفرنسي الاعتذار للسّوريين بوسطة رسولين بعث بهما؛ (هما أديب الصفدي والدكتور منير العجلاني)، لكنّه رفض، فشكاه إلى المندوب السّامي الفرنسي، فما كان من المندوب السّامي إلّا أن استدعى المدعي العام الفرنسي، ونبّهه إلى حماقاته الّتي أثارت سخط الشّارع السّوري، في وقت تحتاج فيه فرنسا إلى الهدوء، ثمّ أمره أن يكذب تصريحاته، فنفذ المدّعي العام ما أمر به. والأمر ذاته أكّده **منير الريس**؛ الّذي كان أيّام تلك المظاهرات يعمل في صحيفة «القبس»، والّذي أشار أنّ تلك الثّلّة من النّساء لا يقللن وطنيّة عن نساء أيّ أمّة في العالم، ولا تختلف حركتهنّ في مغزاها عن حركة الفتاة «جان دارك» الّتي يمجّدها الفرنسيّون؛ فإن كنّ غير شريفات فإن «جان دارك» غير شريفة أيضًا، فكان الرّدّ على منير الرّيس بتعطيل صحيفة «القبس»، وحجبها عن الصّدور[1]. وفي سنة ١٩٤٥م شاركت طالبات المدارس في المظاهرات الّتي خرجت في دمشق تطالب بخروج الفرنسيّين من سورية، وفي أثناء العدوان الفرنسيّ على سورية في ٢٩ آيار خرجت النّساء إلى الشّوارع لتساهمن في عمليّات إسعاف الجرحى، وعملت النّساء في المستشفيات؛ وقامت بتمريض الجرحى ومواساتهم[2].

١. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٦. وانظر: صحفية «بردى» العدد الخاص بذكرى احتفالية الجلاء العدد الصادر بتاريخ ١٨ نيسان ١٩٤٦م.

٢. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٦.

سادسًا: دور المرأة السورية الكفاح المسلح إبان الاستعمار الفرنسي

وعندما اندلعت ثورة أخرى في جبل الزاوية هي ثورة إبراهيم هنانو في ١٨ نيسان ١٩٢٠م، وقد شاركت فيها الكثير من النساء البارزات في الحركة الوطنيّة السورية ومنهن **زكية هنانو** شقيقة إبراهيم هنانو التي كرست حياتيا في سبيل تحقيق أهداف شقيقها، والمبادئ التي ناضل من أجلها، كما تبرعت بثروتها وجميع ممتلكاتها لصالح الثورة الوطنيّة العامة، وأصرت على البقاء بدون زواج لخدمة شقيقها؛ لكي تؤمن سبل الراحة له، وكانت تجتمع مع الشخصيات الوطنيّة البارزة عندما توارى شقيقها عن أنظار الفرنسيّين، بهدف التخطيط لإشعال الثورة والمضي بها قُدما، وكانت السيِّدة زكية همزة الوصل بين شقيقها وبين تلك الشخصيات، كما أنها قادت المظاهرات النسائيّة وقامت بإزعاج الفرنسيّين لذلك كانت مثلاً رائعًا للمرأة المجاهدة، وعندما أسر شقيقها إبراهيم كانت تنقل إليه الأخبار بحجّة إحضار الطّعام له، إذ كانت تقوم بوضع المراسلات له داخل طعامه الخاصّ، ورافقت شقيقها إلى آخر حياته[١].

عندما احتلّت فرنسا سورية سنة ١٩٢٠م وقفت المرأة السّوريّة إلى جانب الرّجل للدّفاع عن وطنها، ومن أشهر الأحداث الّتي حفظها لنا التّاريخ هو خروج منتسبات جمعيّة «النّجمة الحمراء» وهي مثل الصّليب الأحمر شاركت فيها بنات دمشق المندفعات بحسهنّ الوطنيّ لإغاثة المنكوبين، كنّ بقيادة نازك العابد، الّتي ارتدت الزّي العسكري، للقتال إلى جانب الجيش الوطنيّ بقيادة يوسف العظمة في معركة ميسلون ٢٤ تموز ١٩٢٠م، بعد أن قالت كلمتها المشهورة: «**أنا ذاهبة إلى جهاد مُقدّس، وليس إلى مرقص**» في ردّ على منتقديها، وقد تمركزت النّقطة الطّبّيّة الّتي تقودها العابد في الدّيماس قرب ميسلون، وفي بطاح ميسلون قامت نازك العابد، ومنتسبات جمعيّة النّجمة الحمراء بالخدمة العامّة، وإسعاف الجرحى، بينما تخلّف جمع كبير من «الرّجال» الّذين عاهدوا يوسف العظمة على الزّحف معه، وأداء الواجب الوطنيّ. وكان أشهر هؤلاء السّيِّدات

١. نضال المرأة السورية خلال الانتداب الفرنسي، م.س، ص٤٠٠.

نازك العابد؛ الّتي شاركت في المعركة، وشهدت استشهاد يوسف العظمة، وحصلت على لقب جنرال فخري (نقيب) من الملك فيصل، فكانت أوّل امرأة في العالم العربيّ تنال رتبة عسكريّة. وبعد سقوط دمشق توارت العابد عن أنظار الفرنسيّين إلى أن هدأ الجو، ثمّ أخذت تشارك في المظاهرات الشّعبيّة المندّدة بالاحتلال، فما كان من سلطات الاحتلال الفرنسيّ إلّا أن أغلقت جميع مراكز نشاطها؛ بما فيها مدرسة بنات الشّهداء، وبعد أن استمرّت العابد في نضالها قام المحتل بنفيها سنة ١٩٢٢م. اختارت نازك العابد إسطنبول مقرًّا لمنفاها، ثمّ انتقلت إلى عمان، ثم عادت إلى دمشق سنة ١٩٢٤م للنّشاط في الحقلين الإنسانيّ، والاجتماعيّ، بعد أن تعهّدت بعدم المشاركة في أيّ نشاط سياسيّ ضدّ المستعمر الفرنسيّ. ولم تكن معركة ميسلون هي المعركة الوحيدة الّتي شاركت بها المرأة السّوريّة، بل كانت تخوض كلّ معركة يخوضها الثّوّار، فهي تحمل لهم المؤنة، والرّسائل، والسّلاح، غير عابئة بالمخاطر الّتي تعترضها خلال القيام بهذه المهام، والعادات، والتّقاليد الموروثة الّتي تفرض عليها الانزواء في بيتها، وحرمها. وقد تجسّد ذلك الكفاح في معارك جبل الأربعين في شمال سورية سنة ١٩٢١م، فقد سقطت العديد منهنّ شهيدات في ساحات القتال، وهنّ يقمن بمهامهنّ[١].

وعندما اندلعت الثّورة السّورية الكبرى سنة ١٩٢٥م اشتركت المرأة السّوريّة في الثّورة؛ فقد جاهدت بنفسها، وحملت السّلاح، وحاربت مع الرّجل جنبًا إلى جنب، فبعظهن فبعضهنّ طبخن الطّعام للثّوار، وبعضهن أوصلن السّلاح، والذّخيرة، والمراسلات لأزواجهنّ، فكانت مشاركتها مشاركة فاعلة في مساعدة الثّوار في حربهم ضدّ المستعمر الفرنسيّ، وبذلك دخل الشّعب السّوريّ مرحلة جديدة من الكفاح المسلّح ضدّ الفرنسيّين. كان من أشهر أولئك السّيِّدات المناضلة **عادلة بَيهم** الّتي شاركت في المظاهرات، ودعمت الثّوّار سرًّا، وقامت بتوفير الغذاء، والكساء للجائعين من أبناء بلدها، وكانت تنفق من مالها الخاصّ مع مجموعة من السّيِّدات الوطنيّات، وكان الشّعب أثناء تلك الفترة يعاني من

١. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٤، وانظر: زينب فواز رائدة من أعلام، م.س، ص١٨٤-١٨٥.

ضائقة كبيرة، وعوزٍ شديد. وقد استطاعت هذه السّيِّدة الفاضلة أن تؤسّس معملاً للغزل، والنّسيج، استوعب ١٨٠٠ يد أنثويّة عاملة. أمّا السيِّدة **زهيرة شكير** فكانت من الغوطة، وقد قاتلت مع الثّوّار، واستشهدت في معارك الغوطة[١]. بينما كانت السّيِّدة **أم عبده** (من باب الجابية)؛ تنقل القنابل في سلال الفواكه إلى المجاهدين في الغوطة، وقد اشتركت معهم في معركة «قصر العظم»، واستشهدت فيها في ١٩ تشرين الأول ١٩٢٥م[٢].

لم تسلم المرأة السّوريّة من المحاكمة، والتّهم الّتي وجِّهت لها هي مشاركتها في الثّورة، إلاّ أنّ المجلس العدليّ في دمشق أصدر قرار براءتها من خلال المحاكمة، فمثلاً اتّهمت **عزيزة بنت محمد** سنة ١٩٢٦م بالتّجسّس لصالح الثّوّار، فحكم المجلس العدلي ببراءتها لعدم كفاية الأدلّة، كما تمّت محاكمة **رشيدة الزّيبق** قبل المجلس العدليّ بعد مشاركتها إلى جانب زوجها حسن الزّيبق في المعارك، فأصدرت المحكمة حكمًا ببراءتها لجسامة التّضحيات الّتي قدّمتها، والمتمثّلة بتركها لبيتها، وأولادها، وتطوّعيًا للقتال ضدّ المستعمر، وما زالت صورها بلباسها الحربيّ تملأ صفحات كتب تلك الحقبة من تاريخ سوريّة الوطنيّ[٣].

١. نضال المرأة السورية خلال الانتداب الفرنسي، م.س، ص٤٠١.

٢. تاريخ المرأة العربيّة، م.س، ص٢٨٥.

٣. نضال المرأة السورية خلال الانتداب الفرنسي، م.س، ص٤٠١.

الخاتمة

يلخّص هذا البحث دور المرأة السّوريّة في قارعة الاستعمار الفرنسيّ، الّذي كان أشدّ ثقلاً على نساء سوريّة من رجالها؛ لأنّه وجد في العادات، والتّقاليد المجتمعيّة البالية عونًا ضدّ المرأة السّوريّة، وبالتّالي كان على المرأة السّوريّة أن تناضل في وجه الاستعمار الفرنسيّ، وأن تسعى إلى التّحرّر من القيود الّتي أثقلت كاهلها، فنجحت في ولوج التّعليم بعد أن جهود مضنية من سيِّدات السّوريّات اللّواتي كافحن في سبيل ذلك، إنّ تعلّم المرأة، وتنوّرها بالمعرفة، وتسلّحها بالثّقافة العربيّة لم يكن خيراً له، لأنّ هدفه الأوّل كان فرنسة البلاد، والعباد، والمرأة قبل الرّجل، لأنّ المرأة هي الّتي من سيربيّ النُّشّأ، وهكذا نجحت المرأة السّوريّة في الحفاظ على ثقافة البلاد السّليمة، وتراثها الموروث، وصانتها في تربية أولادها، وأفشلت مخطّطات الفرنسة. كما أنّ المرأة العربيّة في سورية نجحت في ميادين الكفاح كلّها، فقد قادت المظاهرات النّسائيّة الّتي طالبت بحرّيّة البلاد، واستقلالها، وبعثت الحميّة في نفوس الرّجال المتردّدين، وطالبت بالحرّيّة للمعتقلين في سجون الاحتلال الفرنسي. ونشطت في كلّ باب من أبواب النّضال الوطني تحت عناوين أدبيّة، أو اجتماعيّة، فقد رعت أبناء الشّهداء، وبناتهم، وسعت إلى حياة كريمة لكلّ مواطن في سورية، وسعت إلى تأصيل القيم، والمثل العربيّة في تكريم المرأة، والحفاظ عليها، ومساواتها بالرّجل، وبالتّالي كشف زيف، وادّعاءات المدنيّة الغربيّة الحديثة فيما يتعلّق بحقوق المرأة. وكتبت في الصّحف، وصرخت بالكلمة، ونظّمت نشاطها من خلال الجمعيّات النّسائيّة. ولم تتوان عن حمل السّلاح، والقتال إلى جانب الرّجال سواء في ميسلون، أو غيرها من المعارك، والثّورات في سورية إبّان الاستعمار الفرنسي، كما أنّها عملت في خطوط الإمداد، والتّموين، ونقلت المراسلات ما بين قيادات الثّورة. وشاركت المرأة السّوريّة في النّشاطات الدّوليّة، وحاولت إيصال صوت الوطن، وشرح القضيّة السّوريّة في المؤتمرات، والمحافل الدّوليّة، وأمام البعثات الدّبلوماسيّة. وهكذا كانت النّساء شقائق الرّجال في سوريّة، واستطاعت ثلّة من نساء سورية تخليد أسمائهن في التّاريخ من أمثال: نازك العابد، وعادلة بيهم، وثريا الحافظ، وماري عجمي.

لائحة المصادر والمراجع

١. بحبوح، زينب، زينب فواز رائدة من أعلام النهضة العربيّة الحديثة، (١٨٤٦-١٩١٤م)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٠م.

٢. البطل، أحمد خالد، الصالونات الأدبيّة الثقافيّة في دمشق (النشأة، الرواد، صعوبات وتحديات) بين (١٩٢٠-٢٠٠٠م)، أبحاث طبعت ضمن جائزة فخري البارودي للمؤرخين الشباب، مؤسسة تاريخ دمشق، دمشق ٢٠٢١م.

٣. بهلون، سمر، تاريخ المرأة العربيّة منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى ٢٠٠٨م، ضمن كتاب تاريخ المرأة في سوريا في مختلف العصور، الصادر عن الاتحاد العام النسائي، دمشق ٢٠١١م.

٤. التونتنجي، محمد، معجم أعلام النساء، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠١م.

٥. حامد علي، رانية، نضال المرأة السورية خلال الانتداب الفرنسي، مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية، العراق، العدد الأول، المجلد ١٩، آذار ٢٠٢٢م.

٦. حسن، الحكيم، مذكراتي، صفحات من تاريخ سورية الحديث (١٩٢٠-١٩٥٨م)، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٥م.

٧. الحسواني، يارا سمير، الحياة الاجتماعية للأشياء حكاية بيت من طالع الفضة، أبحاث طبعت ضمن جائزة فخري البارودي للمؤرخين الشباب، مؤسسة تاريخ دمشق، دمشق ٢٠٢١م.

٨. الخربوطلي، محمد عيد، الصالونات النسائيّة الأدبيّة ودورها في نهضة المجتمع، مجلة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة في الجمهورية العربيّة السورية، العدد ٦٤٦، السنة ٥٦، تموز ٢٠١٧م.

٩. الشهبندر، عبد الرحمن، مذكرات، دار الإرشاد، بيروت ١٩٦٧م.

١٠. العابد، مفيد رائف، أوراق عن عائلة العابد بخط المؤرخ الدمشقي عميد الأسرة، مجلة تاريخ دمشق، الصادرة عن مؤسسة تاريخ دمشق، العدد الثاني، كانون الثاني ٢٠٢٢م.

١١. عثمان، هاشم، الصحافة السورية ماضيها وحاضرها (١٨٧٧-١٩٧٠م)، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٧م.
١٢. ليامنة، سايح، الآثار السياسية للانتداب الفرنسي والبريطاني على بلاد الشام ١٩٢٤/١٩٣٩م، رسالة معدة لنيل درجة الماجستير في التاريخ المعاصر، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر ٢٠١٩م.
٣١. منى غانم وآخرون، النساء ومجلس الشعب في الجمهورية العربيّة السورية، بحث معد بالتعاون مع صندوق الأمم المتحدة الإنمائي للمرأة، والهيئة السورية لشؤون الأسرة، دمشق د.ت.